زوراء
(نومرو) ١ (ربيع الاول) (سنه) ١٢٨٦

١٤٢ عاما على إصدار صحيفة الزوراء

الصحافة العراقية شراع للحرية ومجداف للديمقراطية

كان صدور جريدة الزوراء عام ١٨٦٩ مؤشرا حضاريا يدخل البلاد بعد سنوات طويلة من التخلف والاستبداد الإداري العثماني . فحين تسلم الوالي مدحت باشا امور (ولاية بغداد) قرر ان يجري فيها إصلاحاته ويقدم فيها جهده (الحضاري) المتواضع .. الذي كان كبيرا ومفاجئا وجديرا بالتقدير في حينه ، وربما حتى الان و (الزوراء) بداية متواضعة ولكنها مؤثرة حقا أسهمت في الإرشاد والوعي وخلقت حسا نقديا عاليا لدى الناس الصامتين والصامدين في نفس الوقت الذين وجدوا فيها متنفسا للتعبير عن حاجتهم وأفكارهم وهي بعد ذلك مناسبة ، حين أصبحت للصحافة وللصحفيين في البلد عيدا يحتفلون به في الخامس عشر من حزيران من كل عام والتي تعتبر بحق الحجر الأساس في خلق الصحافة العراقية الحرة.

□ اعد الملف / سها الشيخلي - إيناس طارق

وكـان الـعراق قبل هـذه الـفترة محـروما مـن نعمة الصحافة. عرفت السلطنة العثمانية الصحافة اول الامر عام ١٨٣١م عندما اصدر السلطان «محمود» امره السلطاني بتأسيس جريدة «تقويم وقائع» التركية فكانت الجريدة الوحيدة التي تصل الى العراق، وكان العراقيون آنذاك يتقنون التركية، لأنها لغة الدولة الرسمية ولغة التعليم.

وكانت الجرائد العربية معدومة آنذاك، ولعل جريدة «الجوائب» لاحمد فارس الشدياق التي ظهرت في الأستانة عام ١٩٨٠م أكثرها انتشارا في ما بعد في العراق والعالم العربي. وقد لاحظ مدحت باشا هذا النقص فاصدر امره بانشاء الزوراء وقد اطلت على الشعب العراقي في الخامس عشر من حزيران عام ١٨٦٩ بعددها الاول وفيه كثير من الإرشادات والنصائح وما يروم الوالي القيام به، وما يجب على الشعب عمله، فكانت هذه البادرة خيرا موقظا للشعب، والحافز له للمطالبة بحق مهضوم وحرية مسلوبة، فانصاع الناس الى أرائه وتوجيهاته، كما انهم من ناحية ثانية عرفوا عن طريق الـزوراء ان هناك حكومة وقوانـين، وان هناك اصلاحا فعليا، ومراقبة على الموظفين من قبل الحكومة حتى بلغ الامر بهذا الشعب ان يتجرأ على نقد حكامه على صفحات الزوراء بحدة وصراحة. وقد كان من قبل محروما منها. وتذكر الزوراء بعددها الثاني، إن مدحت كان «يتحقق عن كل من عرف عنه بسوء حاله من الموظفين ليضرب على يده. عزل قائممقام راندوز لارتشائه، وهكذا فعل بمدير ناحية «عنه» واعوانه لانهم اخذوا بعض المبالغ باسم الرسوم وسيق هؤلاء للمحاكمة، وصار الموظفون يخشون ان يعبثوا بالامن لما يجري من مراقبة فكان الناس بمأمن.

ولم يكن صدور الزوراء اعتباطا او كانت بنت ساعتها وانما اعد الوالي العدة قبل صدورها فاصطحب المحررين من الأستانة وعلى رأسهم الكاتب التركي المعروف «احمد مدحت افندي» وجلب لها المطبعة المسماة «مطبعة الزوراء» «الولاية» من فرنسا وما ان تمت كل الترتيبات حتى طلعت على قرائها في صبيحة اليوم الخامس عشر من حزيران باللغتين العربية والتركية وقد جاء في ترويستها .صدرها: هذه الغازيتا تطبع في الأسبوع مرة في يوم الثلاثاء وهي حاوية لكل نوع من الاخبار والحوادث الداخلية والخارجية. وقد نشرت في هذا العدد صورة الفرمان العالي «لمدحت باشا» بتوليه بغداد وهذه بعض فقراته المترجمة الى العربية بلغة ذلك العهد:.

"توقيعي الهمايوني الرفيع اذا وصل يصير معلوماته من المستغنى عن الوصل والبيان والإيضاح والتبيان، خطة ولاية بغداد الجسيمة من اعظم القطع المركبة من الممالك المحروسة من دولتي العلية".

٤٩ عاما من الصدور

بلغت الأعداد التي صدرت من الزوراء رقما توقف عند الـ (٢٦٠٦) نتيجة للاحتلال البريطاني لمدينة بغداد .. بعد ان استمرت في الصدور وبصورة منتظمة لمدة تسعة وأربعين عاما وباللغتين العربية والتركية ولقد ظهرت أول صدورها بصفحتين من الحجم المتوسط وبثلاثة أعمدة لكل صفحة لتقدم في يوم الثلاثاء من كل اسبوع اخبار الوالي وحركات العشائر والاحوال الاقتصادية .

ولتكون من خلال أعدادها الأولى رائدة للأفكار الحرة نتيجة لما كانت تظهره من الجرأة والإقدام والثبات في خدمة الرأي العام حيث كانت تتحدث الى الشعب بحرية وصراحة تامتين وتكشف المساوئ التي كانت قائمة في الأجهزة الإدارية المختلفة ولعل من الطريف ان ننقل هنا بعضاً من النقد الذي وجهته الى التعليم وأساليبه والقائمين عليه ...

برغم العبارات الركيكة التي كانت تسودها تقول (الزوراء) في احد أعدادها تحت عنوان (خذ ما صفا... دع ما تكدر).

"ساغني عن الايضاح اذ المكاتب (يقصد المدارس) الموجودة عارية عن الكفاية الى جسامة ممتلكتنا المعلومة والسلمة سوى تزييدها وتكثيرها وايصالها الى الدرجة اللازمة الذي يثبت به الان هو اصلاح الموجود منها فينبغي في اول الامر ان ترفع المكاتب التي في الدور الاسواق والحوانيت بالكلية ويفتح الان في كل محلة مكتب وليدخل اهالي كل محلة صبيانهم بذلك المكتب ولتستحصل الاسباب لان لايجري التعليم احد قطعا للاطفال ان تعين محال الكاتب ينتقل الشغل الى المعلمين والشرط الاعظم ان يكون المعلمون من ارباب الاقدار على التدريس والتعليم" .

وتأتي أسباب ضعف اللغة الذي ساد الصحيفة نتيجة تولي بعض موظفي الولاية ممن لا يحسنون اللغة العربية أعمال التحرير فيها.

وفي اواخر السنة الاولى من صدور الـزوراء بدأت هذه الصحيفة بالتقرب من الوالي مدحت باشا والثناء عليه والإشادة به بحيث اهملت الى حد ما نشر مشاكل المواطنين ومراقبة الموظفين مما دفع بالمفكر العربي (احمد فارس الشدياق) صاحب جريدة الجوانب الى توجيه النقد لها مشيرا الى اهمية ظهورها من اجل اظهار الحق لا لتكون رواية مديح للوالي والمجلس ثم ليؤكد اخيراً :لهذا كان من مصلحة الرعية ان تكون لهم صحف خاصة بهم .

اما في سنتها الثانية ، فقد أصبحت تصدر مرتين في الأسبوع وذلك اعتبارا من عددها ١٢٦ حيث صارت تصدر يوم السبت ايضا إضافة للثلاثاء مستمرة بأسلوبها الضعيف ولغتها الركيكة.

وفي ١٣ شباط من عام ١٨٨٩ اي بعد حوالي عشرين سنة على صدورها ظهرت الصحيفة بثماني صفحات .. الأربع الأولى منها بالتركية والأربع الاخرى بالعربية وتم إجراء تغيير على تبويبها حيث أصبح للأخبار الداخلية مكان الصدارة ومن بعدها الأخبار الخارجية.. الأوامر السلطانية ومن ثم كلمات الثناء والإطراء على سياسة السلطان فضلا عما تضمنته أعدادها من ارشادات عامة ومقالات صحية لإرشاد الناس وتنبيههم الى ضرورة الاهتمام بالصحة العامة واتخاذ التدابير للوقاية من الأوبئة وانتشارها.

وقد ظهرت على الـزوراء بـوادر التطور في اللغة والأساليب وفي التوجه العام الى امور وقضايا المجتمع حيث استخدمت ولأول مرة أسلوبا تهكميا ساخرا بقصد تنبيه المسؤولين الى مظاهر التخلف والتأخر في نواحي الحياة المختلفة فمن مقالاتها التي اتجهت بهذا الاتجاه نقرأ:

(ما أعجب الحال وما اغرب هذه الأحوال ان قوة انباتية اراضي الحنطة العراقية التي هي فوق العادة حال كونها قد حيرت العقول وملأت بطون صحايف التاريخ وازدهرت في افاق العالم كالمريخ فنحن الى الان نروم (خفض) هذه الشهرة المرتفعة ونريد ان تبقى بلا اسم ولا شهرة والى الان نستعمل الآلات الباقية من عهد نوح ومع هذا فلا يمر بخيالنا امر تزييد زراعتنا وتكثيرها ولا يسري بخاطرنا بحيث توسع دائرة تجارتنا وتوفيرها).

الزهاوي والرصافي رئيسان للتحرير!

في ١٤ نيسان عام ١٨٩٠ تم تعيين الشاعر جميل صدقي الزهاوي مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للجريدة بقسميها العربي والتركي ولغاية ٢ تموز ١٩٠١ حيث جرى تعيين السيد محمد فهمي المدرس رئيسا للتحرير، أما في ٧ شباط عام ١٩٠٥ فتولى رئاسة تحريرها الشاعر المعروف معروف الرصافي ومع ان هؤلاء الثلاثة كانوا كتابا معروفين ... الا ان اثرهم الادبي والاسلوبي لم يظهر جليا في جريدة الزوراء .. ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان اشرافهم على الجريدة كان شكليا فقط وان اغلب المهيمنين عليها من محررين ومترجمين لمقالاتها كانوا من الاتراك الذين لم يكونوا يحسنون اللغة العربية مما جعلها ضعيفة المستوى في هذا الجانب.

في ٢٣ تموز عام ١٩٠٨ ألغى الوالي التركي (نجم الدين ملا) القسم العربي في الجريدة بحجة وجود صحف عربية اخرى وعهد الى محررين اتراك بقصد منع المطالب الشعبية ... الا انها وبعد مرور خمسة أعوام على هذا الحال عادت للصدور باللغتين من جديد.

لقد طرأت على الجريدة تغييرات طباعية وتوزيعية مهمة . حيث ظهرت بإخراج جديد واستعملت الخطوط وحروف الطباعة في عناوينها بـ(البولد) .. كما صدرت بلغة عربية فصحى وبـورق جيد وكـان قائممقامو الأقضية يشرفون على توزيعها.. ويؤمنون إيصالها الى المشتركين ويقومون بجمع الاشتراكات وارسالها الى مقر الجريدة في بغداد.وان الموصل والبصرة زميلتان للزوراء.

الصحافة العراقيــة بعد ١٤٢ عاماً .. امــال وتطلعات

قطعت الصحافة العراقية شوطا كبيرا في سبيل تقديم الخبر والمعلومة للمواطن العراقي وحاولت ان تقدم نماذج متطورة لصحف حققت مكانة وشهرة كبيرة الا ان ظروف العراق السياسية التي مر بها العراق خلال سنوات الدكتاتورية اثرت على تطور الصحافة العراقية وحجمت دورها الطبيعي ، لكن بعد عام ٢٠٠٣ شهدت الصحافة العراقية تحولات كبيرة ٢٠٠٣من أهمها رفع القيود التي فرضها النظام السابق ، حيث ظهرت صحفا عديدة تـتراوح بين ١٨٠ -٢٠٠ صحيفة أسبوعية ويومية واخرى نصف اسبوعية وشهرية ، مع تباين في التوجهات السياسية والأيدلوجية والمذهبية والقومية ، ومع هذا التعدد والتنوع فان هناك وجها اخر للعمل الصحفي في العراق املته التهديدات والتحديات التي واجهها الزملاء العاملون في هذه المهنة ، ما جعل ممارسة المهنة من اخطر الاعمال في العراق وبشهادة منظمات عالمية ، ويمكن القول ان ما يميز صحافة اليوم عما كانت عليه في النظام السابق هي تلك الفسحة القليلة من الحرية، يقابلها خضوع الصحفي الى الخط الذي تنتهجه الصحيفة التي يعمل فيها.ولأجل تسليط الضوء حول واقع الصحافة العراقية اليوم كانت لنا هذه اللقاءات مع عدد من الزملاء

في البداية حدثنا رئيس تحرير جريدة المشرق الزميل صباح اللامي الذي قدم في مستهل حديثه التهنئة لكل الزملاء العاملين في مجالي الصحافة والاعلام ، وتمنى لهم مستوى اقتصادي افضل مما هو عليه الان وقال : ان المستوى الاقتصادي الجيد برأيه يجعل الصحفي بحالة محترمة امام الشعب والحكومة ، ومشكلة الصحفي كما يرى اللامي انه يتعرض الى الازدواجية اثناء عمله ، فمثلا يذهب الى لقاء وزير او رئيس وزراء ويناقشه ويشاكسه ، لكنه عندما يخرج يستقل سيارة اجرة مع الراكبين الاخرين . وبشأن حرية الإعلام و كيف يراها في الوقت الحاضر اوضح اللامي قائلاً :

تمتلك وسائل الإعلام او الصحافة بنسبة معينة هامشا كبيرا من الحرية الآن ، واذا اردنا الصدق فان العديد من الكتاب يتناولون قضايا الحكومة بحرية وبجرأة ، ولكن ذلك يختلف من صحيفة الى اخرى ومن فضائية الى اخرى ، ولكن المهم في الحرية التي نقصدها في الصحافة كرقابة وكسلطة رابعة هي ان كل كلام يصدر من الصحيفة على الحكومة يفترض ان يكون حلقة تكمل الاخـرى في علاقة الاعلام بالحكومة اي بمعنى ان تحسب حساب الرأي الذي تطرحه الصحيفة وتأخذه بنظر الاعتبار سواء بتنفيذه اذا كان قابلاً للتطبيق او بالاجابة وتوضيح الموقف بشأنه لا ان تبقى "اذن من طين واذن من عجين" مثلما يحدث الان ،فالجرائد تتحدث ولا احد يسمعها ، فهذه يمكن ان نسميها حرية ناقصة فماذا يعني صوت بلا صدى ورأي بلا رأي اخر . واضاف غالبا تعجز الحكومة حتى على الاجابة على الصحف ، فنحن نكتب لكي تقرأ الحكومة مشاكل الناس ، والقضايا المهمة التي تطرح في الأعمدة في التحليلات السياسية وفي مجمل الصفحات ، ولكن بدون إجابة و بدون مشاركة من السلطة التنفيذية لذا يصبح الكلام بدون معنى وبالتالي يحبط الصحفي و يحبط المجتمع الذي يأخذ فكرة على الصحافة بأنها مجرد كلام (حجي جرايد) كما تسمى ، ما يهمنا ان نتلقى الرد على ما نكتب لكي نعرف أولا رأي الطرف الاخر، وثانيا لكي نتأكد ان للصحافة تأثيرا والا تصبح الصحافة جعجعة بلا طحين .

الحرية المنقوصة

وعن حرية الإعلام في الوقت الحاضر أجاب عميد كلية الإعلام الدكتور هاشم حسن ب(نعم ولا) ، فقال نعم هناك ممارسات حرة في صحافتنا ، ولا لوجود صحفيين ومؤسسات تتبنى الحرية ، لأن هذه الحرية منقوصة لأنها لا تستند الى نسبة من التشريعات الضامنة لهذه الحريات وعلى رأسها قانون حق الحصول على المعلومات ، فضلا عن وجود قانون لتنظيم العمل الصحفي وإشاعة مواثيق شرف مهنية في كل المؤسسات مع الحرفية العالية ، كل هذه تمثل القاعدة للحرية المنشودة يضاف لها أيضا الحاجة الماسة لتطهير الجسد الصحفي من الطارئين والطارئات الذين أساءوا لصاحبة الجلالة ، وهم لا علاقة لهم بها لا من بعيد ولا من قريب ، الا ان التكسب والارتزاق هو الذي أدخلهم الى بواباتها وأروقتها ، بل دنسوا حتى غرفة نومها .

وعن رأيه بصحافة اليوم وكيف يراها أشار الدكتور حسن الى ان صحافة اليوم ما زالت تجريبية تحاول بناء مؤسسات مستقلة ما زالت غائبة ، وهـي برأي الدكتور هاشم تحاول ان تثبت معايير لصحافة حرة في بيئة يضغط فيها الإرهاب من جهة وتهدد السلطات حتى الحريات العامة من جهة اخرى .

و أشار الى ان الصحافة الحرة يجب ان تعتمد على العديد من المبادئ: أولها الاستقلال والحيادية والانحياز الى الوطن واتباع نظام من التحقق والتحري للوصول الى الحقيقة . وبشأن صورة العلاقة بين المؤسسات الحكومية والمؤسسات الاعلامية اكد الدكتور حسن انها ما زالت لحد الان دون المستوى المطلوب ، فالبعض ما زال ينظر للاعلام من زاوية ورؤية شمولية ويريد ان يحوله الى أبواق وأجهزة نفاق ، الا ما ندر .

ملفات الفساد لم يتخذ بشأنها شيء

وأشار الدكتور حسن كامل رئيس قسم الصحافة في كلية الإعلام ورئيس تحرير صحيفة المستقبل الى ان الاعلام من حيث الاداء حر يكتب ما يشاء ، اما من حيث التأثير فهو مقيد ،ومصداق هذا الكلام ما تشير إليه الصحف اليومية والفضائيات عن وجود ملفات عديدة للفساد الإداري والمالي ولن يتخذ بشأنها اي اجراء ، في حين ان نشر تقرير عن الفساد في البلدان الآخـذة بالديمقراطية يعتبر بمثابة بلاغ للجهات القضائية وتحديدا للنائب العام والمدعي العام المكلف بتحريك الدعاوى القضائية في ما يتعلق بالحق العام ، او هيئة النزاهة او ديوان الرقابة المالية باعتبارها الجهات المسؤولة عن التجاوز العام ، لكن هذا مع الاسف لم نجده عندنا ، ولم نجد دعـاوى قضائية تم تحريكها على اساس الاشارة الصحفية . واضـاف نحن الان نعيش مرحلة شبه القانون وليس القانون ، فالدستور يؤكد الحريات في حين نجد ان هذا الباب يصطدم بالكثير من الإجراءات التنفيذية الحكومية ، وهذا لا يتلاءم مع مجتمع اخذ بالتحول نحو الديمقراطية ، فالمواطن في المجتمع الديمقراطي هو ناخب والمعلومة او التفاصيل التي تنشر في الاعلام هي مهمة بالنسبة له لكي يتكون له الـرأي فيها ، في حين نحن الان نفتقر الى قانون للوصول الى المعلومة الصحفية ، وفي الديمقراطيات هذا حق مكفول للمواطن العادي فكيف بالصحفي ؟

العمل الصحفي مجازفة خطيرة

من جانبهم أكد عدد من الأساتذة والمتخصصين إن في العمل الصحافي مخاطر كثيرة في الوقت الحاضر ،بسبب عدم وضوح الرؤيا بشأن مفاهيم الحرية وتطبيقاتها . وقـال الدكتور قاسم حسن صالح رئيس الجمعية النفسية العراقية في تصريح لـ(المدى) :هناك مقطع شعر من قصيدة "لوركا" الشاعر الاسباني الذي كانت قصائده تتغنى بالحبيبة والـوطن يقول " من الإنسان دون حرية ياماريانا قولي لي كيف استطيع أن احبك اذا لم أكن حراً ؟ كيف يهواك قلبي إذا لم أكن حـراً " فالصحفي هو الذي يحتاج الى الحرية أكثر من غيره وهو الأكثر هموماً ومتاعب وحساسية في المشاعر . وأضاف يوصف رجل الإعلام بالمثقف الحقيقي وهو الذي يجسد الحقيقة ويعد الإعلامي هو الانسان الواعي وهو أفضل ناقد اجتماعي وأفضل من يقول الحقيقة ولكن المشكلة التي يواجهها الصحفي العراقي هي تلك الفوضى الديمقراطية وشيوع الفساد في معظم مفاصل الدولة واستهداف العقول بأسلحة كاتم الصوت ، كل ذلك يجعل عمل الصحفي مجازفة خطيرة من اجل نقل الحقيقة .وأخيرا قال صالح: الله في عون الإعلامي العراقي، وتهنئة معطرة بقرنفلة حمراء في عيد الصحافة .

أمـا الـدكـتـور ولـي جليل راضـي أسـتـاذ في مركز الدراسات والبحوث جامعة بغداد فيقول في تصريح لـ(المدى) : نهنئ جميع الإعلاميين العراقيين بمناسبة عيد الصحافة ونتمنى للإعلام العراقي الذي تحرر من بعض القيود وأصبح اكثر انفتاحاً من أصحاب القرار السياسي ،لكن مع الاسف هناك البعض ممن يحاول تقييد حرية العمل الصحفي بنشر الأخبار التي تسيء الى أطراف معينة بدلا من ان يكون الاعلام وسيلة تجاذب وتقارب على نقل المعلومة الايجابية بين المواطن والحكومة بل حتى بين اطراف الحكومة نفسها بنقل التصريحات بين الساسة بمصداقية تامة حتى تصب في مصلحة البلد وليس جهة معينة

الإعلام الرديف للتعبير

وتقول سهيلة الأسدي عضو في المعهد العراقي لـ(المدى) : نهنئ الصحافة العراقية بعيدها ويجب ان نستذكر دوماً الإعلام الذي أصبح بكل حق السلطة الرابعة التي تعبر عن آراء الناس بكل مصداقية وحرية حتى أصبح الإعلام الرديف للتعبير عن آراء منظمات المجتمع المدني وقد أصبح بمستوى الارتقاء والوصول الى المعلومة الصحيحة .وأكدت لقد اقر الدستور العراقي وجوب حرية التعبير لذلك نلاحظ إن الإعلام في الوقت الحاضر كان صلة الوصل بين الناس ورغباتهم في التغيير وبين الحكومة وإيصال تلك الرغبات بكل مصداقية ،مشيرة إلى انه مع الأسف فان البعض من وسائل الإعلام مازال قاصراً ومقيدا ويؤتمر بأوامر تعكس واقع تلك الأحزاب لذلك نتمنى ان تكون الصحافة والمؤسسات مستقلة وتبقى تعمل بحيادية الموقف من اجل نقل الحقيقة وأخيرا نتمنى التقدم والرقي والازدهار لكل الصحفيين وان يكونوا بحق السلطة الرابعة .

صباح اللامي رئيس تحرير جريدة المشرق

هاشم حسن عميد كلية الإعلام

حسن كامل رئيس تحرير جريدة المستقبل